الفصل السادس

بين محنة الابعاد .. وفتنة التقنين ..

١ ــ محنة الابعاد :

عاشت دولة الاسلام .. أكثر من ألف عام .. تقيم حكم الله كله بغير تفرقة بين شريعة وعقيدة ، وبغير تجزئة لأحكام الشريعة .. وكانت بذلك سابقة لزمانها .. فى وجود دستور مكتوب لها .. ثم فى سمو هــذا الدستور ، وشمول أحكامه ..

ولم تكن تدانيها دولة .. حتى أعرق الأمم « ديموقراطيا » وهى انجلترا فانها .. لم تعرف الدستور المكتوب الا فى سنة ١٢١٥ م .. أى بعد الدولة الاسلامية بأكثر من خمسة قرون .. ولم تعرفه الا فى صورة العهد الأعظم .. وهو وثيقة حقوق لم تتضمن كل ما ينبغى أن يتضمنه الدستور .. وأقدم دستور فى العالم بينه وبين الدستور الاسلامى أكثر من ألف سنة لأن الدســاتير لم تظهر الا فى القرن الثامن عشر ، وكان الدستور الاسلامى فى القرن السابع الميلادى ..

وحتى حين ظهرت الدساتير بدأت قاصرة على الجانب السياسى .. وحين تقدمت بعض الشىء شملت بعض المبادىء الاقتصادية ثم شملت بعض المبادىء الاجتماعية .

ودستور الاسلام شمل هــذا كله .. من قبلهم بألف سنة ، وشمل الى جانبه .. جوانب أخرى .. لا تقل أهمية عنها بل تزيد .. شمل .. جانب العقيدة وهو الأصل والأساس ، وشمل جانب الأخلاق .. وهى كذلك أساس أو بعد الأساس . وشمل جانب الشعائر والتعبد .. ولها ما لها من تأثير الحفاظ على العقيدة والأخلاق .. ومدهما بالرأى والنماء ..

كما أن لها ما لها من تأثير على الجوانب الأخرى للمعاملات : سياسية واقتصادية واجتماعية ..

* * *

وظلت دولة الاسلام بشريعتها وبأمتها .. شامخة على الزمان تمثل « الدولة العالمية » بامتداد رقعتها على محيط قارات العالم كله ، وتمثل الى جانب عالميتها « المثل الأعلى » للشريعة المحكمة وللأمة التى صارت بحق خير أمة أخرجت للناس .. وحار فيها أعداؤها ..

حارت فيها اليهودية الحاقدة التى حملت لها الحقد منذ مولدها فى المدينة .. بما أدى اليه هـذا المولد .. من قضاء عليها فى قلب المدينة واجلاء لها .

وحارت فيها الصليبية المتعصبة .. التى رغم اعترافنا بدينها .. « المسيحية » وبنبيها « المسيح » .. لم تعترف بديننا ولا بنبينا ، واعتبرتنا بلغتها غاصبة لسلطانها مزاحمة له فى الأرض !

وتحركت هاتان .. تحت علم الصليب .. تبغى القضاء على دولة الاسلام التى عاشت أكثر مما عاشته أعتى دولة .. والتى اتسعت ما لم تتسع له دولة من قبل ولا من بعد .

تحركت الصليبية المتعصبة تدفعها وتغذيها اليهودية الحاقدة[1] .. فى حروب للمسلمين امتدت مئات السنين .. فهل استطاعت القضاء على دولة الاسلام .. أو القضاء على المسلمين ؟

لم تستطع هـذا .. ولا ذاك .. برغم أن الدولة الاسلامية شأن أى كائن حى ـ كان قد دب فيها من الأمراض ما يغرى أعداءها بها .. لكنها كانت تنتفض فى كل مرة لملاقاة الصليبيين وحربهم .. حتى انتهى الأمر بها الى هزيمتهم شر هزيمة .. فى حطين وفى غير حطين ! ..

وكان لابد للقوى المعادية للاسلام .. متمثلة فى اليهودية الحاقدة ، والصليبية المتعصبة أن تبحث لها .. عن طريق آخر .. واهتدت ..

ويا للأسف ، بل يا للحسرة .. لمـا اهتدت اليه . اهتدت لهدم البيت من داخله .. لا من خارجه .. وبيد أصحابه .. لا بيد أعدائه ! ..

ونأخذ لذلك نموذجين .. من تركيا .. ومن مصر ..

---

(١) اعترف الكاتب الأمريكى « وليام غاى كار » بأن اليهود كانوا وراء الحروب الصليبية بهدف اضعاف العالمين المسيحى والاسلامى .

أولا ــ فى تركيا : حملت تركيا بصدق علم الخلافة الاسلامية طوال خمسة قرون واستطاعت أن تعوض المسلمين عن الأندلس بما فتحته من بلاد أوروبا .. ودخل نور الاسلام أرض فرنسا والنمسا ورومانيا الى جوار شبه جزيرة البلقان ..

لكن يبدو أن فكر اخواننا الأتراك لم يكن فى مستوى عضلاتهم فبدأ الغزو الفكرى لمركز الخلافة الاسلامية . وأنتج عدولا عن شريعة الله الى القوانين الوضعية بعد أن كان الحكم لشريعة الله طوال القرون الخمسة الماضية . فأصدرت الدولة العثمانية قانون العقوبات فى سنة ١٨٤٠ وقانون التجارة فى سنة ١٨٥٠ مأخوذين عن القوانين الغربية ..

وبقيت دائرة الشريعة تحكم ما سوى هذين النطاقين ..

وفى مجال القضاء حدث ازدواج غريب فى سنة ١٨٦٠ اذ عهد الى « المحاكم النظامية » تطبيق القوانين المأخوذة عن أصل فرنسى وبقى سلطان « المحاكم الشرعية » يتقلص حتى اقتصر على دائرة الأحوال الشخصية ..

وكان ثمة غزو فكرى .. قامت عليه جماعة الاتحاد والترقى ثم جماعة تركيا الفتاة .. اللتان حملتا « جرثومة » فصل الدين عن الدولة .

* * *

وكانت عملية « صناعة الزعيم » .. تتم فى ذلك الحين .. دخلت جيوش الحلفاء أرض تركيا .. وانهزم أمامها الجيش التركى . وفجأة تغيرت القيادة ، وجاء مصطفى كمال أتاتورك .

وفجأة تحولت الهزيمة الى نصر .. نصر هز قلب الأمة الاسلامية حتى لقد وقع شوقى فى خداع التمثيلية .. فراح يشبه كمال أتاتورك بخالد بن الوليد . وشتان بين الصنفين بعيد ! ..

وقال فى قصيدة مطلعها :

الله أكبر كم فى النصر من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

* * *

واذا بمصطفى كمال أتاتورك .. يفجأ الأمة ويفجعها فى الخلافة الاسلامية .. ويحملها مسئولية الهزيمة .

وينفطر قلب الأمة الاسلامية حزنا وأسى بعد أن كان قد اهتز طربا وفرحا ..

ويشبه شوقى الأمر •• بما تم لعروس فى ليلة زفافها •• ويشدو بأبيات لا تزال حية فى القلوب :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الاصباح
الهند والهة ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح
يا للرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
شرف أتى طول الليالى دونه قد طاح بين عشية وصباح

ثم يصور بكاء الامامة الصغرى على الامامة الكبرى •• بكاء على الخلافة فيقول :

بكت الصلاد وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر فى البلاد بواح

ويحسن فهم العقلية العسكرية حين تحكم فيقول :

ان الذين سرى عليهم فقهه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
ان حدثوا نطقوا بخرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصم رماح

وفى قصيدة أخرى يربط بين فجيعة ضياع الخلافة وفجيعة ضياع الأندلس فيقول :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام
طوى الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
خفت الأذان فما عليك موحد يسعى ولا الجمع الحسان تقام

ثانيا ــ فى مصر : بدأ الغزو الفكرى والخلقى لها •• مع مجىء الحملة الفرنسية والذين أرخوا بصدق لهذه الحملة يعترفون •• أن الاحتلال العسكرى لم يكن هدفها الوحيد ان لم يتحقق كهدف تماما •• يتضح لنا ذلك مما حدث فى احتلال سوريا ولبنان وحمل القائد العسكرى « غورو » مع بواخره الحاملة للسلاح والذخيرة •• باخرة تحمل سلاحا جديدا ••

حمل باخرة محملة « بالمومسات » •• فسأل سائل القائد العسكرى : ولم قدوم هؤلاء وأنت قادم لاحتلال عسكرى ؟ فأجاب القائد : ان القوة وأثرها قد يزول •• أما أثر هؤلاء فلا يزول •

وصدق .. فلا تزال القاهرة ، ودمشق ، وبيروت تعانى أثر غزو المومسات[٢] .

وأعقب الحملة الفرنسية .. حكم محمد على .. ولا يزال ذلك الداهية تحار فى شأنه كثير من الأفهام ..

لكن من الأحداث الغريبة فى عهده والخطيرة :

١ — انه قضى على الحركة الوهابية . رغم أنها فى أصلها حركة أسلامية أصيلة .

٢ — انه حارب دولة الخلافة .. وأضعفها .. واقتربت جيوشه من عاصمتها . ولم يكن هذا ولا ذاك .. لوجه الله ! ..

ومن بعد محمد على من الأحداث البارزة كان الاحتلال البريطانى وسبقه بسنين قليلة .. ولحقه بسنة واحدة حادثان هامان :

أما الحادث الأول فكان قبله بثمان سنين فى سنة ١٨٧٥ حين أنشئت المحاكم المختلطة .. ليتداعى لها أو أمامها الأجانب المقيمون .. بعد أن ثقلت مصر بالديون وضعفت أمام النفوذ الأجنبى ! ..

أما الحادث الثـــانى .. فكان فى سنة ١٨٨٣ بصـــدور مجموعات القوانين الأهلية وانشاء المحاكم الأهلية .. ليتداعى أمامها المصريون فى غير مسائل الأحوال الشخصية .

وهكذا تقلصت فى مصر .. بعد تركيا سلطان الشريعة الاسلامية ليقبع فى دائرة الأحوال الشخصية .. الزواج والطلاق والميراث .. أما ما عدا ذلك فقد ترك لحكم غير حكم الله .. تسرح فيه الشياطين وتمرح .. ما شاء لها ابليس أن تسرح وتمرح .

* * *

وظلت المحاكم الشرعية تباشر سلطانها الضيق فى دائرة الأحوال الشخصية حتى تم الغاء المحاكم الشرعية فى سنة ١٩٥٥ فى مسرحية رائعة الاخراج لكنها .. لا تخفى فى هدفها عن ذوى الألباب[٣] .

---

(٢) من كتابنا « عندما يحكم الطغيان » .

(٣) اتهم قاضيان شرعيان بأمر يمس الأخلاق .. فالغيت المحاكم الشرعية .. ولسنا نتعرض لصحة الاتهام أو كذبه .. لكننا نقول .. لقد تعرض الرئيس نيكسون لمـــا يمس الخلق .. فهل الغيت رئاســـة الجمهورية فى أمريكا ؟

وأعقب ذلك صدور قانون تطوير الأزهر فى سنة ١٩٦١ ثم أعقب ذلك صدور ميثاق العمل الوطنى فى سنة ١٩٦٢ خاليا من النص على الشريعة الاسلامية وعلى الاسلام .. وهكذا .. بدت مصر — لأول مرة فى تاريخها من الناحية الرسمية — دولة علمانية .

وأعقب ذلك فى سنة ١٩٦٥ ضرب الحركة الدينية فى مصر بقتل العشرات أو المئات فى التعذيب أو على المشانق أو فى السجون .. تنفيذا لمخطط سابق أشار اليه حكم شجاع جرىء لمحكمة مصرية[٤] .

* * *

٢ — فتنـــة التقنين

قد يكون غريبا على الناس أن نقول لهم ان تقنين الشريعة الاسلامية فتنـــة .. تماما كقولنا منذ قرن ان التعليم المدنى — بالصورة التى هو عليها الآن — فتنة ، وتماما كقولنا منذ نصف قرن أو أكثر .. أن خروج المرأة .. من بيتها وهجرها له فتنة ..

وقد صار الواقع يؤكد أن التعليم المدنى بما أدى اليه من ابعاد التعليم الدينى ، ثم بما أدى اليه من علمـــاء يجهلون دينهم ومن ثم يعادونه .. انه بهذه المثابة كان فتنة .

وصار الواقع يؤكد كذلك .. أن خروج المرأة من بيتها — لغير ضرورة — كان فتنة .. فقد خلت البيوت من رباتها .. وفقد الجيل الجديد المربيات الصالحات .. وترك للخادمات والخادنات !

وعشعشت التعاسة على بيوت الموظفين والموظفات .. يقضون نصف وقتهم فى أعمالهم والنصف الآخر يتناحرون على مصروف البيت ، أو على علاقة الزوج بفلانة أو علاقة الزوجة بفلان ! ..

ونحن نقول اليوم ان تقنين الشريعة فتنة وسوف تثبت الأيام صدق ما نقول .. وحتى ننصح لقومنا .. نقدم هـــذه الأسباب :

أولا : أن اللجوء الى التقنين .. بتشكيل اللجان المختلفة التى تقوم به .. سوف يجعل أمد الحكم بالشريعة بعيدا .. حتى تنتهى اللجان .. ونحن الذين خبرنا عمل اللجان نعرف .. كيف تعمل .. ومتى تنتهى وغيرنا ممن خبر يعرف ذلك ..

---

(٤) راجع كتابنا « فى الزنزانة » — من صفحة ١٣٢ الى صفحة ١٣٥ وهو جزء من الوثيقة الخاصة بمكافحة جماعة الاخوان المسلمين .

والعالمون ببواطن الأمور الادارية يقولون : اذا أردت أن تقبر موضوعا .. فاعهد به الى لجنـــة .. وبعد اللجنة لجنة أعلى ! .. وهكذا . حتى يموت .. أو تموت أطرافه ! ..

وثانيا : لأن أكثر هـــذه اللجان .. تعمل .. فى الخيال .. فهى تتصور المشاكل ثم تتصور لها الحلول .. وليس كذلك يكون وضع النصوص السليمة البعيدة عن العوج .

وثالثا : لأن التقنين سيؤدى الى حجب المجتهدين — ان وجدوا — عن المصادر الأصلية .. الكتاب والسنة .. ويقف الاجتهاد عند فهم النصوص القانونية .. لأنها المطبقة فعلا وهكذا ينفصل الفرع عن أصله ..

وبقاء المصادر الأصلية من نصوص الكتاب والسنة .. أبقى للاجتهاد وأخصب له !

ورابعا : لأنه بصدور هـــذه القوانين سيفرح الناس بحكم الشريعة .. مع أن حكم الشريعة قد يظل معطلا فى أهم الدوائر وآكدها .. وهى : دائرة العقيدة ، ودائرة التعبد ، ودائرة الأخلاق .

وهكذا قد تضفى الشريعة على حكم غير شرعى يقيم بعض الشريعة ويترك بعضها الآخر .. يقيم الحدود .. ويترك الأخلاق .. أو يحرم الربا ويترك الخلوات المحرمة .. وبؤر الفساد المنتشرة .. التى تهدم أكثر مما تهدم الجيوش .. أو أجهزة الاعلام القائمة على نشر الرذيلة واشاعة الفاحشة والاغراء بالجريمة ! ..

وهكذا نقول ان التقنين فتنة ..

* * *

ويثور التساول سريعا .. وكيف للقضاة أن يحكموا .. وأحكام الشريعة فى بطون كتب .. لا يستطيع قراءتها الا القليل منهم ، وان استطاعوا قراءتها فلن يستطيع فهمها الا القليل ..

وان فهمها فقد لا يستطيع استنباط الحكم منها ..

وهذه ثقة .. لا نرضاها لقضائنا .. الذى استطاع فى مجال الأحوال الشخصية .. أن يقف على قدميه بعد الغاء المحاكم الشرعية ، وأن يفوت على المجرمين قصدهم من .. هذا الالغاء ..

لكننا مع ذلك نعترف .. بأن دراسات كليات الحقوق .. لا تؤهل للحكم بشريعة الله .. وهو ما نوهنا اليه من قبل ..

ولن يستقيم الأمر حتى يصير تدريس الشريعة الاسلامية هو الأصل الذى لا يستغرق منه الا القليل • ولنكن واقعيين •• فنعترف أن ازدواجية التعليم لا معنى لها فى بلد دينه الرسمى هو الاسلام •• وشريعته مصدر الأحكام •

لابد •• أن يتوحد التعليم •• ليكون كله دينيا • ليس معنى ذلك الغاء المواد الأخرى •• انما معناه التنسيق •• ليكون التأهيل لفهم الشريعة الغراء •• ودراستها • ولنسارع باعادة « البلابل » الشاردة من أشجارنا •• السائحة فى بلاد الله •• والمتخصصة فى دراسة الشريعة الاسلامية فى أمريكا •• وفى أوروبا •• وغيرها •• فبلدنا أولى •• أولى بهم •• وبجهودهم •

ولنكرمهم •• أكثر مما كرمتهم تلك الدول ! فانهم منابع نور •• وينابيع فضل ••

وانهم البقية الباقية لنا •• من ميراث محمد عليه الصلاة والسلام بعد كتاب الله وسنة رسوله[٥] •

ولقد أفضى الى ربهم أساطين[٦] •• كنا بحاجة الى علمهم وفضلهم وبقى القليل •• الذين نرجو أن تحرص الدولة عليهم حرصها على أثمن ما عندها من كنوز •

* * *

(٥) فى الحديث : العلماء ورثة الأنبياء .

(٦) نذكر منهم .. الشهيد عبد القادر عودة ، والشهيد سيد قطب . ونذكر منهم .. أستاذنا المرحوم عبد الوهاب خلاف وأستاذنا المرحوم محمد أبو زهرة وأستاذنا المرحوم محمد زكريا البرديسى .